الفصل الثالث

قضايا أساسية فى الشعر المعاصر

« ما أجملَ ياقلبى أن تلهثَ خلفَ حياةِ الناسْ
منقطعَ الأنفاسْ
تصلّى فى كل عيونٍ أذبلَها الهم
وتجففُ من فوق جراحاتِ الناسِ الدم »

محمد إبراهيم أبو سنة

obeikandl.com

قضايا أساسية فى الشعر المعاصر

المعادلة الصعبة أمام الفنان المعاصر هى أن يتخطّى بقوة ماقد تسلمه إليه ذاتيته المتفردة المشحونة بالتوتر . لن يستطيع الإنسان : فنانًا كان أو غير فنان - أن يعبر عن فكر سديد وفن جيد ، إلا إذا استطاع أن يصوغ علاقته بواقعه صياغة سليمة ؛ لذلك نرى أن الموقف الفنى الذى يصدر عنه الأديب يعكس رؤيته لحركة الحياة على أرضه ومحاور الصراع فى واقعه . كما يفصح هذا الموقف عن مدى وعيه بأدوات التشكيل الجمالى للنوع الذى يمارسه . وهذه الحقيقة مفتاح أساسى لدرس الأدب وتقييمه . إن على كل من يتعامل مع الظاهرة الأدبية أن يعى جيدًا أنه لاسبيل إلى التعبير الصادق عن لحظة حضارية معينة ، إلا بالوعى الكامل لكل محاور الجدل الذى يحكم علاقاتها ويصوغ تناقضاتها .

ويعكس شعرنا العربى حساسية الوعى بالمعاصرة والطموح إلى التعبير عنها. بأوضح مايتبدّى فى غيره من فنون الأدب . فالشعر جزء أصيل ومهم فى تراث الأمة العربية ووجدانها ، ومايزنتج فيه حتى الآن أكثر من غيره . ويصور هذا الإنتاج تفاعل اللحظة المعاشة وحركتها ، حيث لايزال للشعر ذى الطابع القديم شيوخه وتلاميذه الذين يتمسكون بأشكاله فى التعبير وطرائقه ، بينما يواكب هذا التيار الهرم ، تيار شاب يمثله أصحاب الشعر الحرّ . ونحذر هنا من سذاجة الفهم بأن التجديد فى الشكل غاية ، وأن تشطير الأوزان وغياب القوافى يعدان ميزة وعلامة على المعاصرة . إن التجديد فى الشكل لايُعدّ شيئا ذا قيمة إلا إذا كان يحمل رؤية جديدة للواقع ، ويفصح عن موقف محدد منه ، يتسم بنظرة شاملة نفاذة ، وإلا أصبحت المحاولة مجرد تجريب شكلى عقيم . إنه المضمون الذى يتجدد فى البداية فيكشف عن تطور فى رؤية الأديب بالنسبة لواقعه وموقفه منه . وعلى قدر التحام المضمون بمهام اللحظة التى يصورها وبآمالها الإنسانية العظيمة ، يعكس الشكل أيضا مغامرة فنية جديدة تعبر عن اللحظة المعاشة بكل خصوصيتها وتفردها .

هذه بعض ملاحظات هامة وعامة تطرح عند قراءة شعر محمد إبراهيم أبو سنة فى دواوينه الثلاثة الأولى ، وهى :

قلبى وغازلة الثوب الأزرق (١٩٦٥) - حديقة الشتاء (١٩٦٩) - الصراخ فى الآبار القديمة (١٩٧٤)[1] .

---

(١) صدر للشاعر بعد ذلك أربعة دواوين هى :
أجراس المساء - تأملات فى المدن الحجرية - البحر موعدنا - مرايا النهار البعيد .

محاور الرؤية :

أبو سنة يمكن أن نقيم رحلته فى عالمه الشعرى من خلال الرؤية التى نرى بها الواقع فى تجاربه . إنه لاشىء يبدو فى الفن مُلغِزا إذا ماحكمنا للمُبدع أو عليه ، من خلال الإطار الاجتماعى الذى يعايشه ، وعلى قدر قربه من الإحساس الواعى بطبيعة المرحلة ومهامها يكون فنه واقعيا حيا ، يعكس الى جوار عمق المضمون جودة التشكيل الجمالى .

وتتبدّى المحاور الفكرية لتجربة شاعرنا ، وماطرأ عليها من تعديل ، تتبدى هذه المحاور لا من خلال قصائده فحسب ، بل أيضا من إهداءات تلك الدواوين . الديوان الأول يقدمه .. « إلى الذين يصرّون على إنقاذ الحب ومجد الانسان » ، بينما الأخير يقدمه فى اختصار .. « إلى أبى » . وهذا يعنى أن اهتمامات الشاعر تبدأ من العام شموله وتكاد تنتهى إلى الخاص فى تحدده . لذلك نجد ديوانه الأول يقدم تجارب متنوعة فيها خصوبة الفكر الشاب وتنقله بين كثير من المواقف الإنسانية التى عايشها . هذه التجارب المختلفة على الرغم من تمايز محورى الحب – والحرية فيها ، ووضوحها بشدة ، إلا أنه يضيف إليها تجارب أخرى تثرى ديوانه الأول ، وتعكس إحساسا أقرب إلى الشمولية بالواقع ، مثل قصائد : ريفيات حزينة – من قريتى إلى مرفهة – ضاربة الرمل – من صور الاقطاع فى الماضى – الموت يزور المدينة .. الخ . وهذه القصائد المتنوعة – التى لارابط بينها – إن وهم البعض ذلك – هى التى تعصم الشاعر لا من رتابة الحديث فى نغمة فكرية محددة فحسب ، بل أكثر من هذا ، إنها تعصمه – إيضا – من الغربة والحس المأساوى أو العبثى بالحياة . وشاعرنا يصور هذه الفكرة فى قصيدة لم تتكرر بعد بوضوح فى شعره ، حين يذكر :

« ما أجْملَ ياقلبى أنْ تلهثَ خلفَ حياةِ الناسْ
مُنقطِعَ الأنفاسْ
تُصلِّى فى كل عيونٍ أذبَلها الهمّ
وتُجففُ من فوق جراحاتِ الناس الدمّ
ياقلبى .. يا أرضاً أزرعُ فيها العالم
يا قطعة أحلام تجتازُ سماءً من لهب »[٢]

يبدو إذن الحديث عن النضال والحرية محورًا بارزا فى الديوان الأول مثل قصائد : الدمعة والسيف – طفلة القمر – مرثية شهداء الجزائر – أغنية لفيدل (كاسترو) – الذين يغنون لغيرك ياوطنى .. الخ .

وعمق المعنى فى هذه القصائد يواكبه جمال الصورة الفنية للقصيدة ، وترسم قصيدة « طفلة

---

(٢) قلبى وغازلة الثوب الأزرق : ط المكتبة المصرية – بيروت – الأولى (١٩٦٥) ص ١٧٠ .

القمر » صورة سامية العطاء ثرية الدلالة قوية البناء ، حيث يمضي جزء منها مصورا هذه الفكرة – فكرة استشهاد الحرية حين يجبن حُماتها :

« أما رأيتم العذراءَ طفلةَ القمْر ؟
رأيتُها تجرُّها سنابكُ الخَيولِ فى حَظيرة الملك
وشعرُها مذبةٌ فى كفّ زوجةِ السلطان
غسلتم اليدين فى دمائها
صليتم من أجلِ أنْ تموت
لأنها تكلّفُ الكثير
ومهرُها هو الدّماء
وصرخةُ الإباء
ووقفةُ الخيولِ للخيول
فلتصمتُوا وليخرسِ اللسان
إنْ جفتْ الضّرُوع
أوْ ماتَ فى حقولكم رَبيع
لأنّ خلفَ هذه الجدران
تموتُ طفلةُ القمر . »[٣]

وشاعرنا يؤكد الإصرار على النضال من أجل الحرية فى قصيدة « مرثية شهداء الجزائر » من ديوانه الأول قائلا :

« فلكنْ نحيا لابدَّ نموتْ
فالبذرةُ لاتنمو إنْ لم تأكلُها الأرضْ
ما أروعَ أنْ تفِدى بعضَ الأجيالِ البَعض »

وفى ديوانه الثانى « حديقة الشتاء » يكاد يخفتُ هذا الصوت العالى الواضح – صوت التغنى بالحرية والإشادة بمواقف الكفاح – ويصبح صوتا هامشيا ، بحيث تصير التجربة الشعرية أقرب إلى تصوير فكرة تجريدية منها إلى التعبير عن تجربة حقيقية معاشة . إن الفن حين يستسلم للاغتراب – وما أكثر بواعثه فى عصرنا – يجد نفسه فى مأزق فكرى ، يستره دائما بالتجريد الذى يتعامل مع

---

(٣) المصدر السابق : ص ٢٧ .

الواقع فى عموميته ، أو بالهروب إلى موضوع آخر كالحب الحزين - كما سنرى بعد قليل - يحمّله كل غثيانه وضيقه بالواقع .

وتعبر عن هذه الفكرة قصيدة « فدائى » :

« لن تعرفُوا سخاءَ ذلك الزمن
اللحظة التى تضمُّ ألفَ عامٍ
ففى حديقةِ الخطر
يصيرُ هذا الفارسُ الغلام
جيلاً من الرجال . »(٤)

ويستمر الخط الفكرى لهذا المحور النضالى فى ضمور وشحوب مطردين ، ليصبح فى الديوان الثالث « الصراخ فى الآبار القديمة » أدنى إلى الاستجابة لمناسبة منه إلى الرغبة فى التعبير عن إيمان بفكرة ، مثل قصائد : مرثية لعبد المنعم رياض - إلى شادية أبو غزالة - الفارس الذى رحل (أنور المعداوى) . أكثر من ذلك فإن هذه القصائد وأمثالها تجسد بطولة الفرد لا بطولة الواقع الذى أنبته ، والذى هو دائما مصدر عطاء خصب للبطولة والأبطال . إن على الفن وهو يرصد حركة واقعه ويصوّر تضحية أفراده ألا يعزل الشخصية الإنسانية عن جذرها الاجتماعى ، لا من أجل حيدة الحق والحقيقة فحسب ، بل أيضا من أجل أن تصبح تجربته الفنية أكثر نضجا وثراء ، حين تبصر الواقع فى كماله ، واللحظة فى شمولها ، والتجربة بجميع علاقاتها ، إذ لاريب فى أن عمق الفكر وجودة المضمون يفضيان بالضرورة إلى ثراء الخيال الفنى ، وروعة التشكيل الجمالى .

وبينما يخفت هذا الصوت تتكاثف القصائد المعبّرة عن الحب الحزين فى ديوانيه الثانى والثالث . إن الحب عاطفة نبيلة وعلاقة سامية . من هنا يشكل البحث عن الآخر همًّا أصيلا عند الإنسان الحقيقى ، إذ الحب النبيل فى حياة البشر لايعنى بالنسبة لهم إثبات الوجود فحسب . بل يعنى بالدرجة الأولى كمال تحقق إنسانية الإنسان . بيد أن الحب رغم خصوصيته لايمكن نواله إلا فى ظل علاقات غاية فى النبل الإنسانى والطهارة الاجتماعية .

ونتتبع رحلة شاعرنا الفكرية فى هذا الدرب فنجده منذ ديوانه الأول يصور إحساسا بعدم القدرة على تحقيق الحب فى زمن مرٍّ لايجود به .. لذلك نجده يصرخ قائلا :

« ياحبُّ الواحدَ فى هذا الزمن المُرّ
أسعدُ إنسانٍ فيهم من يعشقُ مرّة
حتى الحب الواحد لايكمُل

---

(٤) راجع القصيدة كاملة فى : حديقة الشتاء . ط . دار الآداب - بيروت - الأولى (١٩٦٩) ص ٧٥ .

لكن ياحبّى لو أن مدينتهم عشقتْ
مافكّر إنسانٌ فى أنْ يقتلَ زَمنه .»[٥]

فى هذا المناخ المجدب الذى لاينبت الحب ولايرعاه يصبح الفرد أيضا - كما يصوره الشاعر - أكثر عجزًا على العطاء والوفاء . وهذا ماتؤكده قصيدة « آخر أزهار الموسم » إذ يقول فيها :

« وتوقفنا
كُنّا مشدودَيْن إلى ظلينْا
تعجزُ فينا الرغبة والأشواقْ
تأكلُ أنفسَها الأحداق
لايخطو الواحدُ نحوَ الآخر
كلٌ يعشقُ نفسَه . »[٦]

إنه الحب - عند شاعرنا - يصير إذن وردة ذابلة فى « حديقة الشتاء » ، ويتحول الحديث فيه إلى « صراخ فى الآبار القديمة » ، ويصبح المحب « المغامر المجنون »[٧] ، والمحبان مذنبين ومسئولين عن قتل حبهما منذ بدآه : لذلك يخاطب المحب - على لسان الشاعر - محبوبته قائلا :

« مضى منذُ بدء عُمرهِ إلى الختامْ
مغامرًا مقدام
وكلُّ ما أتاهُ من آثام
فنحن فاعلوه
أنا وأنتِ المذنبان
لكننا سُقناه نحوَ ساحةِ الإعدامْ »[٨]

ليس اللافت فى شعر الحب الحزين عند أبو سنة هو اطراده التراكمى نحو الكثرة فحسب . وإنما نستشعره فى هذا الموضوع - أحيانا - يلمّح بأكثر مما يصرح ويكنّى بأبعد مايكون ذا دلالة على تجربة حقيقية . إن نجوى العواطف الذاتية أقرب المضامين إلى نسق الشعر الغنائى ومع هذا

---

(٥) قلبى وغازلة الثوب الأزرق : ص ١٤ .
(٦) حديقة الشتاء : ص ١٢ .
(٧) راجع قصيدة بنفس العنوان فى ديوان « الصراخ فى الآبار القديمة » : ط . المكتبة العصرية - بيروت - الأولى (١٩٧٤) ص ١٢ .
(٨) الصراخ فى الآبار القديمة : ص ١٦ .

تظل غزليات شاعرنا – رغم رقتها – أميل إلى التفلسف التجريدى فى سيرة الحب الحزين ، حيث يصبح طالب الحب كالباحث عن « أسماك البحر الميت » ، يبذل مايقدر ويعبر عما يأمل قائلا :

« قدرى قدرُكْ
لايرويني إلا ماؤُك
لايُشبعنى إلاّ خبزك
فامنعنى أوْ فامنَحنى
تِلك صلاتى ، حينَ لجأتُ إليك .»[٩]

رغم كل هذه الضراعة يتمدد المحب محترقًا – بعد أن تركه الحبيب – تأكله « أسماك البحر الميت »؛ من هنا فإن قصيد الحب عند شاعرنا مجال للتأمل الحزين إلى حد كبير ، أو لنقل إنه مرثية حبٍ ، تنشده الرغبة وتجهضه القدرة . تتمناه النفس ، ولكنها تحس بالعجز عن إدراكه وتحقيقه .

ليس مانرصده بالنسبة للشاعر هنا هو إصراره على الحديث عن الحب بهذا الشجن الحزين – فقد تكون الفكرة تعبيرًا عن تجربته الخاصة ، أو قد تكون (رامزة) لإحساس بالضياع أو الغربة – وانما إصراره أيضا على أن يظل هذا المحور أبرز محاور فكره الأدبى وأوضح مايميز عالمه الشعرى . إن من حق البشر أن يحبوا .. وأن يعبروا عن حبهم . ولكن ليس من المقبول بالنسبة لفن ملتزم وإنسان واعٍ أن يدير حركة عالمه ونسق فكره استجابة لموقف ذاتى .. خاص .. حزين ، هذا فى تقديرى يحيل الحبَّ من عاطفة نبيلة سامية إلى علاقة شائهة كريهة ، وينقل الحب من حديقة العالم المزدهرة بورود الأمل والتفاؤل إلى مقابر الموتى، حيث أطلال العَفن والعَدم .

ننتقل بعد هذا إلى الحديث عن محور فكرى ثالث يدور حوله عالم أبوسنه الشعرى وهو التأمل الحزين فى الحياة ، الذى يتحدث فيه منذ ديوانه الأولى . ففى قصيدة « السر » نسمع هذه النغمة الموغلة فى التشاؤم الحزين :

« فى صمتٍ .. احملْ كفَنك
وادخلْ قبرك
لاغيرَك
سوف يُصلّى من أجلك . .
لا غيرك . »[١٠]

---

(٩) راجع القصيدة كاملة فى : الصراخ فى الآبار القديمة ص ٦٠ .
(١٠) راجع القصيدة كاملة فى : قلبى وغازلة الثوب الأزرق – ص ٢٨ .

ومرة أخرى يصيح بتأمله وسخريته من « الحكمة المنهزمة » مؤكدًا أن العالم لايحفل أبدًا بالحكمة ، وأن القوة تحكم هذا العالم :

« ياشيخى الفاهم :
ماذا قالتْ كتبُك غيرَ الوهم
لم تنبئنى الأوراق
فى أىِّ الآبارِ المنسية فى الصحراء
يرقدُ مفتاحُ العالم
ياشيخى الفاهم : حين خرجتُ لأول غزوة
جَبُنتْ كتبك .
أخفَتْ أوجهَها الكلمات
ولأنك ماعلَّمت حُسامى الطَّعن
لم يُسفك سيفى غيرَ وريدى . »[١١]

ويبدو التأمل أعمق فكريا فى قصيدة « عصر الانسان » التى تناجى سُقراط . ولكن المعلم العظيم حين يُبعث ليشهد اللحظة الحضارية المعاصرة يقول :

« بُورك هذا العصر
عصرُ الإنسان
لكن هل جفتْ أنهارُ الدم
هل بات البشر جميعا سعداء
الجوعُ الأصفرُ يلهو بالأطفال
فى نصف بلادِ العالم
القسوةُ تفمدُ خِنجرَها
فى أعين آلافِ العشاق
أعلامُ الخوفِ على جدرانِ العالم
يرفعها القتلة
الإنسانُ الظالم

---

(١١) راجع القصيدة كاملة فى : حديقة الشتاء - ص ١٦ .

لايدعُ الإنسانَ الطيبّ
يبنى ويُغنى ويحب
العالمُ يَبكى ويَجُوع
اغرسْ أعلامك فوقَ الكون
لكن عُدْ للأرض
كى تبنى قرية
يسكنها فقراءُ الهند
لتجففَ أنهارَ الدم الحمراء
ولتصنعْ مهدًا للأطفال التعساء .»[١٢]

٥ ٥ ٥

التشكيل الجمالى :

هذه بصفة عامة أهم المحاور الفكرية التى يدور حولها شعر أبو سنة . وبقى أن نتوقف عند تشكيله الجمالى لفنه . ذلك أن للأدب أسلوبا خاصا فى صياغة مضامينه لايعتمد على التقرير والمباشرة ، وإنما أسلوبه ذو نسق خاص يستخدم لغة تصويرية تثير الانفعال لدى المتلقى فى عين اللحظة التى تقدم له فيها المعرفة . وهذه بدهية من أوليات الدرس الأدبى ، أشار إليها أرسطو فى كتابه « فن الشعر » ، واطرد الحديث فيها عند غيره من النقاد فيما بعد .[١٣]

إنها القصيدة إذن تشكيل جمالى : بالصورة والإيقاع ، تعبيرًا عن موقف فكرى يراه الأديب . لذلك فنحن نقوم القصيدة ابتداء – من وجهة نظرنا الواقعية فى درس الفن – من حيث التحام الفكر فيها بالواقع ، وأن تعكس جدل اللحظة التاريخية التى تعبر عنها وسمات الإطار الاجتماعى التى أبدعت فى ظل تفاعلها الإيجابى معه ، بمعنى أن يكون الفن نشاطا اجتماعيا بالضرورة . انطلاقا من النسبى فى التصوير إلى المطلق فى الدلالة والتعبير . بحيث تجسد مضامينه – دوما – مشاعر الوجدان الإنسانى فى نضاله من أجل الحق والخير والجمال . وعلى نفس القدر من الجلال للمضمون يجب أن يتحقق للفن من أدوات تشكيله الجمالى مايضمن له تفرده النوعى وامتيازه الفنى . يتواكب إذن المضمون والشكل من حيث القيمة فى كل إبداع فنى . ومن نفس المنطلق يظهر صوت الفنان الخاص فى كوكبة ممثلى فنه ، وتتضح إسهاماته فى تاريخ النوع الذى يمارسه .

---

(١٢) راجع القصيدة كاملة فى : الصراخ فى الآبار القديمة ص ١١٣ .

(١٣) كتاب أرسطو طاليس فى الشعر : تحقيق وترجمة د . شكرى عياد . ط . دار الكاتب العربى – القاهرة – الأولى (١٩٦٧) ص ٢٥٧ .

obeikandl.com

ويمكن أن ترصد تمكن أبو سنة من بناء عالمه الشعرى منذ ديوانه الأول فى القصيدة التى جعلها عنوانا للديوان « قلبى وغازلة الثوب الأزرق » . حيث الخيال عنده مركب ذو تنويعات فكرية متعددة ، من هنا تأتى أفكاره ذات أنغام تصويرية لعناصر مختلفة يكون بها نسقا فنيا خاصا ، يؤدى إلى ثراء الإحساس بالواقع وعمق الوعى به .

إن بناء القصيدة عنده مجدول من عناصر شتى يمتزج فيها الخاص بالعام ، والماضى بالحاضر ، والأسطورة بالواقع ، والرمز بالحقيقة المباشرة . لذا نجد القصيدة تبدأ بصوت الذات الشاعرة تتعذب من أجل الإنسان مناضلا « منذ كان يكافح أجنحة الليل تغطى كل الطرقات » . والشاعر مؤمن بانتصار الإنسان منذ انتصار « نوح » على الطوفان وروما على « نيرون » . ويعود الشاعر من عالم الأسطورة إلى واقعه الخاص ، إلى « بحيرات قرانا » تكافح من أجل تحقيق الوجود وبناء الأمل . لذلك يعود ثانية إلى عالم الأسطورة يستمد منه تفاؤل النصر ، حين يشبه مصر بزوجة « أودسيوس » الوفية « بنلوبى » . من هنا يؤكد بالصورة إشراقة الأمل حين يذكر :

« سيعودُ يمامُ القريةِ يابنلُوبى
والإنسانُ المجْهدُ لن تُهلَكه الشمسْ
والقمُر سيكملُ دورتَه ، لن يبكى أبدا
ما أجمل وَجَه الانسانِ يُضيءُ غدا .»[١٤]

هكذا يتضافر – عند أبو سنة – قدر كبير من ثراء الخيال وعمق الفكر وتناسق المجاز مع دلالته الخصبة .

على أن مايجب أن تلفت النظر إليه هنا هو – مجموعة من القضايا التى تثيرها الدراسة الفنية لأبو سنة : شاعرا معاصرا :

الأول : قدرته على أن يجسّد بالصورة كثيراً من أفكاره ومضامينه ، بمعنى أن جُملِ الشعرية تصور مدركاتٍ حسية ومعنوية متنوعة ومتباعدة ، لتبنى عالما متميزا فى تركيبه وجدّته . وهنا تبرز (اللغة) وسيطا حسيا يخلق تجسيدًا لوعى الشاعر الفكرى والجمالى ، إذ أن لغته ذات بناء قوى ، ودلالة مُلائمة للسياق الذى ترد فى ثناياه .

الثانى : عذوبة ورقة « الإيقاع الموسيقى » فى قصيده ، إننا لانفرق بين الشكل والمضمون . وبنفس الدرجة من التلازم لانفصل المعنى عن إيقاعه وتناغمه ، ذلك أن موسيقى الشعر وصوره : بما تحمل من فكر وفن ، يسيران سويا فى عالم الفن ؛ من هنا يبرز تناسق الإيقاع وصفاؤه دلالة على عمق الفكر وثراء الفن بالدرجة الأولى . بمعنى آخر إن مايحمله وعاء التجربة الفنية من معرفة إنسانية عميقة لايحول دون خصوصية مايتسم به الفن من متعة سحرية نفاذة ، « تطهر »

---

(١٤) راجع القصيدة كاملة فى : قلبى وغازلة الثوب الأزرق ص ٦٥ .

المشاعر البشرية ، وتؤدى إلى مزيد من تحقيق إنسانية الإنسان .
يوضح هذه الحقيقة على سبيل المثال .. هذه الصورة الجزئية :

« ما أجملَ ياقلبى أن تلهثَ خلفَ حياةِ الناسْ
منقطعَ الأنفاسْ
تصلى فى كل عيونٍ أذبلها الهمّ
وتجففُ من فوقِ جراحاتِ الناسِ الدم .»[١٥]

الثالث : استيحاءُ الشاعر جو الأسطورة عُنصرا يُثرى به فكره الأدبى . إن أساطير الإنسان الأول معين لاينضب للوحى الفنى : إذ ماتزال قادرة على أن تخصب أى فكر يستعين بها . وتبدو هذه السمة : سمة استيحاء الأسطورة اليونانية والفرعونية واضحة عند شاعرنا بدرجة تكاد تحس فيها بالقصد والعمد أحيانا ، كأنما يريد أن يشعر بثقافته الواسعة فى هذا المجال خاصة فى ديوانه الأول .

ونشير هنا إلى قصيدة درامية جيدة استوحى الشاعر إطارها الخيالى من عوالم الادب الشعبى خاصة عالم « ألف ليلة وليلة » وهى قصيدة : « حلم ملكى » ، والتى تصور ملكا طاغية أذل الرجالَ والبلدان ويحكم بالشريعة العمياء :

« قانونُ دولتى :
الخوفُ حارسُ السلطانْ
أنامُ كلَ ليلةٍ بحضن جارية
ويشهدُ القضاةُ :
بأننى أعفُّ من حَكَمْ .»[١٦]

ويستعين الشاعر « بالحلم » أداة تصويرية معبرة تكشف للطاغية مايعيش فيه من وهم وزيف وضلال ، حيث يحلم بأنه ذهب إلى مخدع زوجته فوجدها فى حضن عبدها ، بينما رجال البلاط يأمرون به ليقتلوه . وخادمه يبصق على رسمه . وتنسجم صورة أخرى « رمزية » تعكس حقيقة واقعه الأليم ، إذ نزل ضائقا بعد هذا إلى حدائق القصر فأبصر القطط تطارد الفئران . هنا يتضافر فى تجربة الشاعر الواقع مع الحلم والحقيقة مع الرمز ، ليستيقظ ضمير الملك يريد أن يبيع كل ماعنده لقاء ليلة من الأمان .

---

(١٥) راجع القصيدة كاملة فى : قلبى وغازلة الثوب الأزرق ص ١٧٠ .
(١٦) راجع القصيدة كاملة فى : حديقة الشتاء ص ٨١ .

« أجولُ فى الخريفِ والشتاءْ
أسائلُ العرّافَة الخرساءْ
عن فارس نبيلِ
يمدُّ ظلَّهُ علىَّ
وعدلَه على البلاد
ويحق الشريعةَ العمياء »

واذا كانت جملة شعرية واحدة قد تكون كافية لاستحضار جو الأسطورة خلفية تثرى التجربة الفنية ، فإن الشاعر - كما قدمنا - قد استوحى من عالم « ألف ليلة وليلة » معظم عناصر هذه التجربة الدرامية الخصبة التى لم تتكرر فى شعره . وهذه مثلبة غاية فى الوضوح لدى كثير من أدبائنا ، تلك هى وضع التراث القديم خاصة « الشعبى » منه بين قوسين ، وعدم الوعى الكامل بأهميته وجلاله . إنه الإنسان لايكون قادرًا على الإنسلاخ عن واقعه ، فهو - من باب ألزم - أعجز عن أن يقطع أواصره بتراثه وروافد وجدانه . لن تتحقق لأى فن قومى سمة الخلود والأصالة إلا إذا زرع فكره بقوة فى تراثه « الخاص » وأبان عن وجه تمايزه ومصدر تفرده . إن عالمية الفن تتبدى بقدر مايحمل من خصوصية الذات المبدعة إزاء واقع محدد . أيضا فإن المطلق فى الفن لايلفى ماهو نسبى :

بقيت ملاحظة جوهرية وعامة لم يقع فيها أبو سنة وحده ، وإنما كثير من الأدباء الشبان . إن عالم الفنان ومحاور فكره حق له أن يحددها لا أن يحدها . الفن - كما وضح - انطلاق من الذاتى والخاص إلى الموضوعى والعام . من هنا تتمايز وتتنوع عوالم الأدباء ، وهذا مصدر ثراء كبير للفن ، بحيث يمدنا بعوالم فريدة من تجارب البشر .

ولكن إذا كان من حق المبدع - كما ذكرنا - أن يحدد عالمه : فأى خطيئة يقع فيها حين يحده فى مجال واحد لايبرحه ، وموضوع معين لايحيد عنه كثيرا ، حقيقة إن الفن ليس بالموضوع ، وإنما بطريقة التناول وكيفية التعبير بالمضامين والرؤى ، التى يجسد بها الفنان مواقفه .. من هنا تبدو خيبة الأمل كبيرة . حين يُقصر كثير من الأدباء - خاصة وأنهم شبان - مضامينهم فى إطار عوالم ذاتية خاصة وتجارب عاطفية حزينة - إن لم نقل مريضة - يغلفها كثيرًا الإحساس الشديد بالغربة والضياع . هنا يسلم الأديب نفسه - دون أن يعى - إلى « أرشيف » الذكريات . إن الفن تعبير إيجابى عن قدرة الإنسان الخلاقة . فعجز الفنان إذن عن خلق عوالم حية ، متنوعة ، خصبة ، متفاعلة .. هو بالضرورة عجز عن فهم دور الإنسان فردا فى الجماعة ، بله أن يكون عجزا عن فهم دور الفن الاجتماعى .

إن طاقات الإنسان الخصبة وقدراته الهائلة ، والطموحات المنوطة به أكبر من أن تحد فى إطار

التعبير عن عاطفة مهما تكن عزيزة نبيلة ، أو البكاء على تجربة رغم ماقد يكون لها من تأثير على الذات .

إن القيمة الحقيقية للفن ليست فى اعتباره معبرًا عن تجربة خاصة لفرد أو موجها بنفس الدرجة لتطهير عواطف فرد آخر أو تسليته ، بل إن قيمته الحقة فى أن يقدم لنا « نموذجا » واقعيا يعبر عن قدرة الإنسان الخلاقة على فهم العالم وإعادة تغييره وتنظيم قيمه وعلاقاته .

وإذ نذكر بهذه الحقيقة الموضوعية فى الدرس الأدبى أدباءنا الشبان نذكر بها على وجه خاص شاعرنا أبو سنة ، ونراهن على أنه سوف تعود لمضامينه خصوبتها وتنوعها الفكرى .. ويقوى إيماننا فى مستقبل أبو سنة الشعرى - بل والمراهنة على هذا - بعض ماقاله فى قصيدة « الشاعر والعصر » :

« فهل تراكَ تخسُر المرهانْ
تضيعُ يومك الطويلَ بالمجان
وهل تراك تُسلم القرصان
زمام عصرنا
يقودُ فى الظلام
بلاغَة الأولمب والأهرامْ
أتستطيع صيحتُك
أن تحمى اخضرار غابةِ الأمل
لكى يصير سيدًا على مصيره الانسان[١٧] . »*

* * *

(١٧) راجع القصيدة كاملة فى : الصراخ فى الآبار القديمة ص ١٠٢ .

* نشرت فى مجلة « الثقافة الجديدة » - اليمن الشمالية - مارس ١٩٧٦ .